الفصل الخامس

قيمة الحياة[1]

عند ما ظهر كتاب مللوك (Mollock) من خمسة عشر عاماً مضت متسائلاً عن قيمة الحياة ، كان له ولجوابه الهزلى من أن الأمر «يتوقف على حالة الكبد الصحية» رنة عظمى فى الجرائد . ولكن الجواب الذى أريد أن أقدمه الليلة ليس بالهزل ، ولكنه الجدى الهام الذى يمكن أن يعبر عنه بما قال شكسبير فى إحدى مقدماته ، — « لست أبغى اليوم أن أثير فيكم نشوة الفرح والسرور ، إذ أن حالة مايهمنا ويعنينا من الأمور ، تدعو إلى الحزن والاكتئاب، وهى مليئة بالمخاوف ومحفوفة بالصعاب ». وهنالك فى أعمق مركز من مراكز قلوبنا توجد زاوية يلعب فيها مافى الأشياء من سر وغموض ويعمل ، ولكن بغم واكتئاب ؛ ولست أدرى ما الذى تريده جمعية مثل جمعيتكم هذه ، أو ما الذى تبغونه من الأشخاص الذين تطلبون منهم أن يتحدثوا إليكم ، إلا أن يكون رغبة فى أن ينهضوا بكم من النظرة السطحية للوجود، وفى أن يصرفوا انتباهكم، على الأقل لوقت قصير ، عن طنين غير المهم من الأشياء والانفعالات التى تتكون منها سلسلة تفكيرنا العادى ، وعن رنينه ، وعن تموجاته واهتزازاته . لذلك أسألكم ، من غير أن أقدم شرحاً أو اعتذاراً ، أن تحولوا انتباهكم ، وهو فى

---

(١) محاضرة ألقيت فى جمعية الشبان المسيحية فى هارفارد ، ونشرت فى (International Journal of Ethics) ١٨٩٥

العادة عمل غير مقصود ، إلى ماهو أعمق من ذلك من نغمة الحيـاة القلبية . فدعونا نبحث معاً فى تلك الأغوار البعيـدة العميقة ، علنا نعثر فى ثناياها أو فى أعماقها على جواب لسؤالنا .

— ١ —

يجيب كثير من الناس عن السؤال المتعلق بقيمة الحيـاة بطبيعة تفاؤلية تجعلهم غير قادرين على أن يعتقـدوا أن الشر الحقيق يمكن أن يوجد . ومن هذا النوع من التفاؤل الـكتابة المشهورة لصديقنا Walt whitman ، فلقـد ملأ السرور بمجرد الـكون حيّا كل قلبه وجوارحه بحيث لم يترك فراغاً لأى شعور آخر فيقول :

« ما ألذ استنشاق الهواء وما أحلاه ! ما أجذل النطق ، والمشى ، والقبض باليد على الأشياء ! وأن تـكون فى تلك القدسية حيث أكون ! . . . ما أعجب الأشياء ، حتى أحقرها ! يا لروحانية الأشياء ! إننى أتغنى بالشمس ، محتجبة ، وفى كبد السماء ، أو كما هى الآن فى المغيب ؛ إننى أخفق طرباً للعقل ولجمال الأرض وكل ماينبت منها . . إننى أتغنى بالمساواة ، قديمها وحديثها ، إننى أتغنى بما لا نهاية له من غاية الموجودات ، وأقول إن الطبيعـة والعظمة من الباقيات الخالدات . إننى أسبح وأمدح بصوت كهربائى ، إذ لا أجـد فى الـكون ماهو ليس بكمالى ، ولا أرى مايدعو إلى الحزن والبـكاء » .

كذلك روسو (Rousseau) ، حين يكتب عن التسع سنوات التى قضاها فى آنسى (Annecy) : فهو لم يجد شيئاً يحدث عنه إلا ما كان هو فيه من نعيم وسعادة حيث يقول :

« كيف أخبر عن شىء لم يُقَل ولم يفعل ، ولم يفـكر فيه ، ولـكنه ذيق وأحس به فحسب ، فلم يكن هناك موضوع لهناءتى ونعيمى إلا الشعور بالهناءة نفسها !

فلقد استيقظت عند شروق الشمس ، وكنت سعيداً ؛ وذهبت للمشى وكنت سعيداً ؛ ورأيت « الأم » ، وكنت سعيداً ؛ وغادرتها وكنت سعيداً . وتجولت بين الغابات وفوق منحدرات الكروم ، وسرت فى الوديان ، وقرأت ، وأضعت الوقت سدى ، وتروضت فى الحدائق ، وجمعت الثمار ، وساهمت فى عمل البيت ، وتبعتنى السعادة فى كل مكان . لأنها لم تكن فى موضوع خاص ، ولكنها كانت فى نفسى ، فلم تغادرنى لحظة ما » .

إذا أمكن جعل مثل هذه الحالة دائمة ، ومثل هذه الطبيعة عامة ، فإنه لايكون هناك مسوغ لمثل حديثنا هذا . فسوف لايحاول فيلسوف أن يبرهن على أن الحياة تستحق العيش فيها ، إذ أنها تكون ، إذن ، من البدهيات، وتختفى المشكلةلسقوط السؤال لا لوجود جواب عنه . ولكنا لسنا من السحرة حتى نقدر أن نجعل هذه الطبيعة التفاؤلية عامة فى كل الناس وفى كل الأوقات ؛ وإنه ليوجد دائماً مع كل طبيعة تفاؤلية أخرى تشاؤمية مناقضة وناقضة لها . فهنالك فيما يسمى بالجنون الدورى مظاهر من الملانخوليا تعقب أخرى من الجنون الحاد ، من غير وجود سبب ظاهرى يمكن إدراكه ؛ وكثيراً ماتبدو الحياة اليوم متألقة باسمة للشخص العادى ، وتبدو له غداً متجهمة عابسة ، تبعاً لتقلبات ما أسمته كتب الطب القديمة « تركيب الأمزجة والأخلاط » ، أوكما قالت الجرائد فى جوابها الهزلى : «إنه يتوقف على حالة الكبد». فانظر إلى طبيعة روسو غير المتزنة تراها قد تغيرت فى أيامه الأخيرة ، فأصبح فريسة للملانخوليا ، وللكثير من الخيالات المرعبة المخيفة وللشك . ويظهر أن بعض الناس قد وجد فى هذا العالم بطبيعة غير قادرة على أن تكون سعيدة ، كما أن طبيعة Walt whitman كانت غير قادرة على أن تشعر بالغم والاكتئاب . ولقد ترك لنا هذا

البعض عبارات فى هذا المعنى أكثر خلودا من عباراته ؛ وذلك مثل الذى تركه لنا معاصرنا جيمز تمسون (Jemes Thomson) ، فى ذلك الكتاب المثير لعواطف الحزن ، « مدينة الليل المخيف » ، الذى لا يعرفه الناس كما كان ينبغى أن يعرف ، لما فيه من جمال أدبى ؛ إنهم لايعرفونه لأنهم يخشون أن يقتبسوا من عباراته ، التى هى فى غاية من الحزن والاكتئاب ، ولكنها فى الوقت نفسه مظهر رائع للصراحة والإخلاص . يصف الشاعر، فى أحد أجزائه ، جماعة اجتمعت ليلا فى كنيسة مظلمة متسعة الأرجاء لتستمع إلى أحد الوعاظ . وما ألقى إليهم من وعظ يعز علينا الآن ذكره كله لما فيه من طول ، ولكنه ينتهى بهذه العبارات :

« أيها الإخوان المشتركون فى الحياة المريرة ، إن مدة البقاء فيها ليست بالطويلة، فلا بد أن ننجو منها بعد سنوات قليلة ، ألا يمكننا أن نتحمل تلكم السنوات من الحياة ؟ ولكن إذا لم تقدر أن تستمر فى تلك الحياة المريرة، فلك أن تُنهيها عند المشيئة، من غير أن تخشى صحواً بعد وفاة » .

« إن مايشبه الأرغن من تموجات الأصوات، اهتز فى أرجاء الكنيسة ثم اندثر ومات؛ وما مال إلى السرور منه من نغمات ، كان حزينا ورقيقا قرب انتهاء الصلوات ؛ ومع هذا فقد ظلت كنيستنا الظليلة هادئة ساكنة، كأنها تتدبر فى أن لك «أن تنهيها عند الإرادة» .

« ولا تزال أبرشيتنا الظليلة ساكنة مطمئنة ، كأنها تفكر فيما قد سمعنا من رسالة ، ومتدبرة فى أن لك أن «تنهيها عند الإرادة» ، كأنها لاتزال ترجو أن تسمع غير ذلك من عبارة ؛ فبينما هى كذلك ، إذا بصوت حاد يأتى مزمجرا ، من ناحية السماء المحجبة مرعدا وقائلا : يقول الرجل الحق ، يقول الرجل الحق ، فواحسرتاه ! ليس لنا من حياة فردية بعد الوفاة ؛ ولا يعرف القضاء غضبا ولا رحمة ؛ وليس هنالك من إله : فهل أجد هناك فى القبر ما أبتغى من راحة ؟ ليس لى فى كل

مراحل البقاء إلا فرصة واحدة ، وهى سنوات قلائل من حياة إنسانية طيبة ، ـ أبهة التقدم فى الحياة الفكرية ، وجمال المنزل والأطفال والحياة الزوجية ؛ وظرف ومسرات الحياة الإجتماعية ؛ وعالم الفنون وما فيه من فتنة وجاذبية ؛ وعظمة العوالم الطبيعية ، وإضاءتها لقوة الخيال الذهنية ؛ وحب الوجود ممتلئا بالصحة والقوة ؛ وإهمال الطفولة ، وعبث الشباب والفتوة ؛ وقوة الرجولة وماتربح من مادة وثروة ؛ ووقار الشيخوخة وهدوءها بعد حياة طويلة بالصدق حافلة ؛ وكذا كل الامتيازات العليا للإنسان ، المخزونة فى الذاكرة من قديم الزمان ، والمستخرجة من منهاج الليالى والأيام عن طريق النظر إلى سلسلة الحوادث وملايين التغيرات .

« لم تسنح لى هذه الفرصة يوما ما ؛ إذ أن ماضىَّ اللامحدود صحيفة خاوية بكماء ؛ ولن تتاح لى هذه الفرصة يوما ما ؛ إذ أن المستقبل عندى كله هباء فى هباء .

« كانت هذه الفرصة الوحيدة عندى مضيعة من أول الأمر ، وكانت هزؤا وتضليلا ؛ وكان تنفسى لتلك الحياة الإنسانية النبيلة على هذه الكرة مضنيا إلى حد جعلنى أتوق إلى موت لا معنى فيه ولا مدلول له .

« نبيذى فى الحياة هو سم قد أشرب بمرارة ؛ وينقضى نهارى فى خيالات مؤلمة ، وليلى فى أحلام مزعجة ؛ وإن حالى لأكثر سوء من مجرد خسران الأعوام التى هى كل مالى ؛ فما الذى يمكن أن يكون عزائى عن عظيم خسرانى ؟

« لا تتحدث عن الراحة ، حيث لا راحة ؛ ولا تنطق أبداً ، فهل يجعل القول القبيح حسنا ؟ فحياتنا كلها غش وخداع ، وموتنا هاوية مظلمة . فاسكت كأنك لا تقدر أن تنطق ، مظهراً يأساً وخيبة .

« جاء ذلك الصوت الحاد من الجناح الشمالى ، قوياشديدا ، ولكنه مع ذلك فجائى ؛

ولفترة لم يحر أحد جوابا من أية ناحية من النواحي ، فالأنفاظ أمام هذه الشدائد يحق لها أن تختفي ؛ وأخيرا قال الخطيب بكل سذاجة ، برأس منخفض مفكر ، وعيون رطبة مبللة :

« أخي أخي ، يا إخواني الساكنين ، إنه لحق وما هو بالهزل : ليس في الحياة ما هو خير لأحد ، ولكنها ستزول سريعا ، ثم لا تكون بعد ذلك أبدا ؛ ونحن لا نعرف شيئا عنها قبل أن نولد فيها ، وسوف لا نعرف شيئا عنها عندما نقضيها القبور ؛ وإني أفكر في هذه الأفكار ، فتسبب لي راحة وهدوءا » .

« إنها تنقضي بسرعة ، ثم لا تعود أبدا » و « لك أن تتخلص منها إذا شئت » — تفيض هذه العبارات وأمثالها حقا من ملاحظولية قلم عمون ، وهي في الحقيقة عزاء له ولكل من بدا له هذا العالم كهفا ممتلئا بالخاوف أكثر منه ينبوعا للسرور والرضا . وترى جيوش الانتحار ، — الجيوش التي هي في دوامها واستمرارها تشبه مدفع الساعة الجيش البريطاني الذي يتبع الشمس في دورتها حول العالم ولا ينتهي أبدا — أن الحياة ليس لها من قيمة ترغب في البقاء فيها . وعلى الرغم مما نحن فيه الآن من هدوء وراحة ، فلا بد لنا أيضا من أن نقدر مثل هذه الآراء ، لأننا نشترك مع المنتحرين في مادة واحدة وجوهر واحد ، ونساهم في الحياة . وإن مجرد الاتحاد العقلي معهم يقضي علينا ، بل الإنسانية والمروءة تمنعاننا من أن نتجاهل قضيتهم .

يقول مستر روسكن (Ruskin) ، « إذا فاجأ ، في وقت من أوقات خفة النفس وسرورها وتمتع الحلقوم في مأدبة عشاء من مآدب لندن ، أن تشققت جدران القاعة ، ودخل من بين تلك الثنايا ، وبين تلك الجماعة المنعمة ، قوم آخرون صفر الوجوه من

المسغبة، وضعاف بسبب التربة ، وقباح من الفقر وتملوهم الذلة والمسكنة ، فوقفوا على مارق من السنادس واحداً بعد آخر ، وكل واحد بجانب مقعد من مقاعد الضيوف ،ـ فهل كان يرمى إليهم حتى بفتات النعائم ، وهل كانت توجه إليهم نظرة عابرة أو يفكر فيهم ولو تفكيراً سطحياً ؟ ولكن الحقائق الواقعية هى أن العلاقة بين كل فقير وكل غنى لم تتغير بسبب ذلك الحائط الذى يفصل مائدة الغنى عن سرير المريض الذى يتضور جوعا ؛ وهى تلك المساحة الضئيلة من الأرض (وما أقلها) التى هى فى الحقيقة كل مايفصل بين السعادة والشقاوة » .

— ٢ —

والآن ، لندخل فى موضوعنا رأساً ، دعنا نفترض أنفسنا فى مناظرة عقلية مع إنسان لم تترك له الحياة من الراحة والسعادة إلا إنعام النظر والتدبر فى القضية التى تقول «لك أن تتركها إذا ماشئت» . فما الذى يمكن أن نلجأ إليه من الأدلة والبراهين لنجعل هذا الفرد راغباً فى أن يتحمل أعباء الحياة ثانية ؟ لايجد المسيحى العادى فى مثل هذه الحالة إلاالعبارة السلبية « ليس لك أن تفعل » . إذأنه يقول ، إن الله وحده هو رب الحياة والموت وخالقهما ، وإنه لكفر أن تحاول أن تسبق يده الباطشة القاهرة . ولكن هل يمكننا أن نجد شيئاً خيراً من هذا وأكثر منه إيجابا ، وهل نجد نوعاً من التدبر والتأمل نثيره فى كل من يريد الانتحار ، ليرى بالفعل ، ويشعر حتى فى أشد الحالات بؤسا ، أن الحياة لاتزال ذات قيمة ترغبه هو فى البقاء فيها ؟ هنالك انتحارات وانتحارات (لاتقل فى الولايات المتحدة عن ثلاث آلاف حالة كل عام) ، وليس لى إلا أن أعترف صراحة بأن اقتراحى عاجز كل العجز عن علاج غالب هذه الحالات . فإن أسباب الانتحار إذا كانت ترجع إلى حالة جنونية أو دوافع نفسية

مفاجئة حادة ، فإن التدبر يعجز عن أن يقف فى سبيله ؛ ويرجع مثل هذه الحالات إلى اللغز المطلق فى العالم ، إلى لغز الشر ، وهو اللغز الذى لايمكننى أن أذكر شيئاً بالنسبه له إلا إشارات مقتضبة قبيل انتهاء الوقت المحدد لى . فموضوعى الآن ، إذن ، موضوع محدود وضيق ، ولا تتعلق كلماتى إلا بتلك الحياة الميتافيزيقية الملة ، التى هى من خصوصيات رجال التدبر والتأمل . ولا شك أن الكثير منكم يحب ، إن للخير وإن للشر ، حياة التدبر والتأمل . فكثير منكم طلاب فلسفة ، ولابد أن تكونوا قد أحسستم بالشك وبعدم اليقين ، اللذين ينشآن عن الاحتكاك الكثير بالقواعد الذهنية المجردة . وهذه ، حقاً ، هى إحدى نتائج التضلع من البحوث النظرية . إذ يؤدى الإكثار من الأسئلة مع الإقلال من المسئولية العملية ، فى غالب الحالات ، كما يؤدى الإفراط فى مذاهب الإحساس ، إلى حافة منحدر ، يوجد فى نهايته الدنيا تشاؤم وأحلام وخيالات مزعجة ، أو النظرة الانتحارية . ولكن بجانب مايسبب المرض من تفكر وتأمل ، يوجد تأمل آخر يبطل مفعول كل علاج له ؛ وإننى ذاهب الآن إلى التحدث عن ذلك النوع من الملانخوليا وكلال الحياة والضجر منها ، الذى ينشأ عن التفكر والتأمل .

دعونى الآن أقول من المبدأ ، إننى سوف لا ألجأ فى النهاية إلى ماهو أكثر غموضا من العقيدة الدينية . فسوف لايتضمن جدلى ، من ناحية سلبية ، أكثر من إبطال بعض الآراء التى تبقى غالباً أصول العقائد الدينية مضغوطة محصورة ؛ وسيتضمن ، من ناحية إيجابية ، إبرازاً لبعض الاعتبارات العاملة على حل تلك الأصول من عقالها وإخراجها مما هى فيه من حصر إلى طريق عادى طبيعى . ودعونى أقرر أيضا أن التشاؤم ، فى جوهره ، مرض دينى ، ولاينشأ ، فى كيفيته التى أنتم عرضة لها ، إلا عن مشكلة دينية لم تجد لها جواباً دينياً معقولاً .

وهنالك مرحلتان للشفاء من ذلك المرض ، مرحلتان متباينتان قد ينتقل المرء بهما من النظرة التشاؤمية نحو الأشياء إلى الأخرى التفاؤلية المضيئة ، وسأبحث كلا منهما على حدته . والمرحلة الثانيـة هى أكثر كمالاً ومجلبـة للسرور ، وهى تلائم الاستعمال المطلق لـكل من الثقـة والتصور الدينى . فهنالك أشخاص يتمتعون بكثير من الحرية فى هذه الناحية ، وهنالك آخرون ليسوا كذلك . فنجد ، مثلا ، أشخاصاً منغمسين بجوارحهم وقلوبهم فى مظاهر البقاء ومؤملين فيهـا ؛ بينما نجد آخرين لا يكادون يتصورون إمكان مثل هـــذه الفـكرة . وأولئك هم المقيدون بحواسهم ، والمحدودون بتجاربهم الطبيعية ، وإنهم ليشعرون بنوع من الإخلاص العقلى لما يسمونه « بالحقائق الواقعية » التى يحزنها أن تسمع بتلك الرحلات الهينة إلى غير المحسوس التى يقوم بها بعض الأفراد استجابة لنداء عواطفهم . قد تـكون عقول الطرفين عقولاً دينيـة من الطراز الأول . وقد يرجون جميعاً القبول والغفران ، مستسلمين ومؤملين فى الاتحاد والانسجام مع العقل الـكلى . ولـكن الأمل أو الرغبة ، عنـد ما يكون العقل مشغوفاً ومقيداً بالحقائق المحسوسة ، وخاصة على النحو الذى أظهرها فيه العلم ، قد تؤدى إلى التشاؤم ، كما أنها قد تؤدى إلى التفاؤل ، عند ما تبعث التصورات الدينية والثقة الدينيـة على أن تتجه نحو عالم آخر أكثر جمالاً وحسناً من هذا العالم .

لذلك قلت إن التشاؤم فى جوهره مرض دينى . ولا شك أن للنظرة التشاؤمية حول الحياة أسباباً عضوية شتى ؛ ولـكن أعظم سبب عقلى لها هو ذلك التناقض بين حوادث الطبيعة وبين الرغبة فى الاعتقاد بأن هناك وراء تلك الطبيعة قوة أخرى روحية ليست الطبيعة إلا مظهراً لها . وليس مايسميه الفلاسفة «اللاهوت الطبيعى» إلا طريقاً

من طرق تسكين ثورة تلك الرغبة وتهدئتها ؛ وليس الشعر حول الطبيعة الذى يفيض به أدبنا الإنكليزى إلا طريقاً آخر من هذه الطرق . فافترض ، الآن ، أن عقلاً من هذا النوع الأخير من النوعين اللذين ذكرناهما قد تعلق بكل مايتبع التمسك بهذا النوع وشغف به ، وقبل حقائقه كما هى وكما وجدها ؛ وافترض ، علاوة على ذلك ، أنه يرغب رغبة قوية فى القربان المقدس ، ولكنه يدرك كيف أنه يكاد يكون محالاً بالنسبة له أن يشرح نظام الطبيعة لا من ناحية لاهوتية ولا من ناحية شعرية ، — فما هى النتيجة التى يمكن أن ترجى من مثل هذه الحالة إن لم تكن تضارباً وتناقضاً نفسياً ؟ ذلك التناقض النفسى (كتناقض) يمكن علاجه بأحد طريقين : فإما أن تزول الرغبة فى شرح الحقائق الواقعية شرحاً دينياً ، وتبقى تلك الحقائق بنفسها ؛ وإما أن تكتشف حقائق أخرى مكملة تسمح للحقائق الأولى أن تفهم فهماً دينياً ، أويعتقد فى حقائق من هذا النوع. وهذان الطريقان هما مرحلتا العلاج ؛ وهما مرحلتان للتخلص من التشاؤم أشرت إليهما سابقاً ، وأرجو أن يجعلهما البحث الآتى أكثر وضوحاً .

— ٣ —

فإذا بدأنا بالطبيعة ، فلا شك أننا نميل ، إذا ما كنا متدينين ، نحو مشاركة أورليوس (Marcus Aurlius) فى قوله : «أيها العالم! إننى أرغب فى كل ماترغب فيه». وتحدثنا كتبنا المقدسة وتقاليدنا عن إله واحد ، خلق السموات والأرضين ، ونظر إليها فوجدها جميلة طيبة . ولكننا نجد ، عند المعرفة عن كثب ، أن السطوح المرئية للسموات والأرض لا تطاوعنا فى محاولتنا صهرها إلى وحدة عقلية . إذ يوجد بجانب كل ظاهرة يمكن أن نمتدحها أخرى أو أخر مناقضة لها ومزيلة لكل ما قد يكون

لها من أثر دينى على العقل . فالجمال والقبح ، والحب والكره ، والموت والحياة ، أمور متلازمة ومرتبطة برباط لاينفصم ؛ وبدل تلك الفكرة القديمة التى تملأ النفوس حرارة وقوة من إله محب للإنسان ، تخيم علينا فكرة أخرى من قوة جبارة باطشة ، لاتحب ولا تبغض ، بل تطوى الأشياء طياً بلا قصد ولا غرض ، وتقذف بها جميعاً إلى مصير واحد محتوم . تلك فكرة فى الحياة غريبة متشائمة ، ومزعجة خطرة ، ولقد أوجدنا نحن ما فيها من سم زعاف باعتناقنا لشيئين لا يمكن أن ينسجما أبدا ، — باعتقادنا ، أولاً ، أنه لابد أن يكون هناك نفس كلية شاملة ، وباعتقادنا ، ثانياً ، أن ماجريات الحوادث فى الطبيعة مظهر حقيق ومعبر دقيق مطابق كل المطابقة لتلك النفس الكلية. وإن ذلك النوع الخاص من الموت فى الحياة ومن المشاكل المولدة للجنون لا يعيش ولا يفرخ إلا بسبب ذلك التناقض الذى يوجد بين تلك النفس الكلية المحيطة بنا والمتحكمة فينا ، والتى يجب أن يكون بيننا وبينها بعض الاتصال ، وبين صفات تلك النفس وأعراضها كما تظهرها الحوادث الطبيعية . ويقول كرلايل (Carlyle) فى الفصل المسمى The Everlasting No من كتابه المسمى Sartor Resartus نقلاً عن تيوفلدروخ Teufelsdröckh « إننى عشت فى نوع دائم من الخوف ، يدعو إلى الاضطراب ويثير الجبن ، ولكنى لست أدرى مم هذا الخوف ؛ فيخيل إلىّ كأن كل مافى السماء من فوق وكل مافى الأرض من تحتى يؤذينى ويؤلمنى ، وكأن السموات والأرضين ليست إلا فكين لا نهائيين لغول قتال ، حيث أقف بينهما مضطرباً وجلاً ومنتظراً مصيرى المحتوم من هلاك وازدراد » .

تلك هى المرحلة الأولى من الملانخوليا النظرية . ولا يمكن أن يكون الحيوان عرضة لهذا النوع من الجنون ؛ ولا يصاب به أيضاً الإنسان غير المتدين . إنها رعشة

المثيل الناشئة عن الإخفاق فى تحقيق بعض المطالب الدينيـة ، وليست بالضرورة نتيجة للتجارب الحيوانية . وكان من الممكن لتيوفلدروخ نفسه أن يغير من هـذا الاتجاه ، ويواجه مافى التجارب من تشويش واضطراب ولغط ، إذا لم يكن من قبل ضحية لثقة عمياء فيها ولعاطفة حادة نحوها . فإذا كان قد واجهها كجزئيات من غير أن يفكر فى أنها مظهر لواحد كلى ، متجنبا المرير منها ، ومنغمساً فى كل ماحلا منها ، ولابساً لكل حالة لبوسها ، فإنه كان من الممكن له أن يصل إلى غاية أخف من هذه وأسهل ، وأن يشعر بأنه لاضرورة له فى أن يملأ الجو عويلاً وبكاء . أيمكن أن نقول ، إذن ، إن حالة الاستخفاف والاستهانة وعدم المبالاة هى أكثر الأدواء نجاحاً فى علاج متاعب الحياة وآلامها ، وهى المخدر العملى؟ لا ! ليس الأمر كذلك ، إذ أن هناك شيئاً فى نفس تيوفلدروخ وفى نفوسنا جميعاً ، يخبرنا بأن هناك نفساً كلية ندين لها بالطاعة والإخلاص ، ولا بد أن نكون بالنسبة لها جادين . وهكذا يبقى المرض النفسى والتناقض من غير علاج ؛ لأن الطبيعة فى ظاهرها لاترينا نفساً كلية مثل هـذه ، وقد افترضنا أن بحثنا الآن محصور فى الطبيعة فحسب ، فليس لنا أن نذهب إلى ماوراءها .

لست الآن أتردد فى الاعتراف أمامكم بأن هذا التناقض يبدو مستلزما بالضرورة إخفاقاً لعلم اللاهوت الطبيعى إذا ماأخذ بنفسه فى سهولته وبساطته . ولقد كان هناك عصر يسمح لأتباع ليبنتز (Leibnitz) ، المغطاة رؤوسهم بالمهول من الشعر المستعار أن يكتبوا مقالات مؤيدة للقول بوجود الله ، مستندين فيها إلى الانسجام التام الذى يرونه موجوداً بين أجزاء العـــالم وإلى النظام المحكم المتحكم فيه ، ويسمح لهؤلاء الذين تربوا على الخضر من موظفى الكنائس الرسمية أن يبرهنوا بما فيهم من صمامات ومفاصل على وجود « مدبر خلق وعقلى لهذا العالم » . ولكن قد انقرضت تلك العصور ؛ ونحن ، الآن فى القرن التاسع عشر ، ولنا نظريات تطورية

وفلسفة ميكانيكية ، ونعرف الطبيعة جيداً وبلا تحيز ، نرفض أن نعبد إلهاً تكون هذه الطبيعة مظهراً دقيقاً لكل ماله من صفات . حقاً ، إن كل ما نعرف حول الحسن والواجب لم ينشأ إلا عن الطبيعة ؛ ولكن الشأن كذلك أيضاً بالنسبة لكل ما نعرف حول الشرور والآثام . فالطبيعة المشاهدة مطاطة ومحايدة ، وقابلة للتشكل بأشكال خلقية شتى ، وليست عالماً خلقياً واحداً . ونحن لا ندين بالطاعة لعالم قُلِّب مثل هذا ؛ ولا يمكننا أن نكوِّن معه وحدة خلقية ؛ ولسنا مضطرين فى علاقاتنا به أن نطيع أوامره أو أن نعصيها ، وألا نتبع من قوانينه إلا ما تملى به الحكمة ، وهو الذى يساعدنا على أن نحقق أغراضنا الخاصة . فإذا كانت هناك ذات مقدسة ، فلا يمكن أن تكون هذه الطبيعة مظهرها المطلق للإنسان . فلا بد أن نقول ، إذن ، إن هذا العالم ليس مظهراً لنفس كلية ، أو إنه مظهر ناقص لها ؛ أو « كما تقول كل الأديان العليا » ما نسميه طبيعة مشاهدة ، أو هذا العالم ، لابد أن يكون حجابا ، أو مظهراً سطحيا لعالم آخر غير مرئى .

إننى لابد أن أعتبره ربحا (ولو أن بعض الطبائع الخيالية تعتبره خسارة لا تعوض) أن أوهام الطبيعيين من عبادة إله طبيعى ، موصوف بهذا الوصف فحسب ، قد بدأت تفقد مالها من قيمة وقوة فى نظر العقل المثقف . وإذا ما كنت فى الحقيقة معبراً عن رأيى الخاص تعبيراً مطلقا من كل الشروط والقيود ، فإنى أقول (على الرغم من أنه قد يبدو كفراً عند بعض الناس) إن المرحلة الأولى للحصول على إدراك سليم وعلاقات مستقيمة مع العالم هى الثورة ضد وجود إله من هذا النوع . و تلك الثورة هى فى جوهرها الثورة التى يصفها Carlyle فى الفصل الذى اقتبست منه سابقاً فيقول :

« لماذا تبكى دائماً وتنوح ، مثل الجبان ، وتترنح خائفاً مضطرباً ؟ أيها الإنسان

المحتقر ! أليس لك من قلب ؟ ... ألا تقدر أن تتحمل كل ما يأتى به الدهر ، متجاهلا كل صروفه ، فتطأ النار بقدميك ، وإن كانت هى تلتهمك ؟ دع ما يكون يكون ؛ فسأواجهه وأتحداه ! وعندما فكرت على هذا النحو ، جرى شىء من الحرارة كأنه ينبوع من نار فى كل عروق ودمى ، فنفضت عن نفسى ذلك الخوف المحتقر ، ونجوت منه إلى الأبد ...

« هكذا كان يصلصل اللاسرمدى بقوة فى كل أدوار حياتى ، وفى نفسى ؛ وعندئذ وقفت نفسى كلها ، بما فيها من عظمة طبيعية مخلوقة لله ، وسجلت احتجاجها . ذلك الاحتجاج ، الذى هو أهم عمل فى الحياة ، قد يسمى بذلك النوع من الغضب والتحدى الذى يتحدث عنه السيكلوجى . فقال اللاسرمدى بعد ذلك : استمع ، إنك لطريد شريد منبوذ ، والكون كله لى ؛ ولكن نفسى الآن كلها أجابت قائلة : إننى لست لك ولكننى حرة طليقة ، وإننى أبغضك أبداً ! ومن تلك اللحظة ، بدأت أن أكون رجلاً » .

ويذهب صديقنا تمسون (James Thomson) فى نفس الطريق ويقول:

« من هو أكثر الناس شقاء وغماً فى ذلك المكان الحزين ؟ إننى أعتقد أنه أنا ؛ ولكننى أفضل أن أكون على هذا الوضع من التعاسة والشقاء على أن أكون هذا الذى أوجد مثل هذه المخلوقات لتحط من قدره ولتشينه . فإن أكثر الأشياء قبحاً وخسة لابد أن يكون أقل قبحاً وخسة من هذا الذى أوجدها ، سيداً كان أو إلهاً . يا موجد الخطايا والخطوب ، إنك ممقوت خبيث ، عنيد حقود ، إننى أقسم أن الأشياء لم تطو ولم تنشر بقوتك ، ولا أن كل الأضرحة قد بنيت لعظمتك . أوليس لى أن أفترض أنه من الخطأ الفاضح المشين أن يوجَد فى مثل هذا الكون رجال من هذا النوع؟ » .

إننا هنا نعرف جـــد المعرفة ونشاهد مناظر هؤلاء الأشخاص الذين اعتزوا بتخليص أنفسهم من الاعتقاد فى إله أسلافهم الـكلوينيين ، ـ الإله الذى خلق الجنة والحية ، وجعل النار الخالدة. فوجد بعضهم بعد ذلك آلهة أكثر شفقة ورحمة ليعبدوها، وارتد آخرون عن جميع الأديان ؛ ولـكنهم جميعاً يؤكدون لنا أن التخلص من زغل التفكير فلا تشعر باحترام أو تقديس نحو هذه المحالات من الأوثان يسبب ما لا يقدَّر من السعادة النفسية . وجعْل روح الطبيعة وثناً ، وعبادتها ، هو كذلك زغل وضلال فى التفكير ؛ وذلك الضلال فى التفكير يقود النفوس المتدينة ، والتى هى مع ذلك علمية ، إلى ملانخوليا فلسفية ؛ والمرحلة الأولى للنجاة من ذلك الخبل الفلسفى هى فى إنـكار ذلك الوثن ؛ ومع سقوطه لا بد أن تزول كذلك حالة البكاء والجبن والعويل. أما الشر نفسه ، إذا ما نظر إليه وحده ، فإن مجهود المرء نحوه محدود ، لأن علاقته به ليست إلا علاقة عملية . فسوف لا يبدو كطيف ، وسوف يفقد أهميته كلغز وكشبح مخيف ، إذا ما هاجم العقل أمثلته الفردية كلا على حدة ، ولم يفكر فى صـدوره عن قدرة واحدة .

هنا ، إذن ، وفى مرحلة مجرد التحرر من ربقة أوهام الوحـدة ، يجد المفكر فى الانتحار جوابا مشجعاً لسؤاله عن قيمة الحياة . فهنالك فى الإنسان بعض القوى الغريزية التى لا تعمل عملها الصحيح إلا إذا طويت المسائل الميتافيزيقية والمسئولية اللانهائية . وإن التيقن بأنه يجوز لك أن تخرج من الحياة أى وقت شئت ، من غير أن تـكفر بذلك أو يعتبر عملك عملا مرعبا مهولا ، هو نفسه فرجة عظمى وتخفيف. ولا يعتبر التفـكير فى الانتحار الآن تحديا خاطئا أو حصرا وضيقا . ويقول تمسون (Thomson) ، فى هذا الصدد «تلك الحياة القصيرة هى كل ما يجب أن نتحمل؛ فإن أمان القبر وسلامه دائما مضمون ؛ إننى أفـكر فى هذه الأشياء فتطمئننى وتريحنى» . وإنا، مع

ذلك ، يمكننا أن نتحملها أربعا وعشرين ساعة أخرى لنرى، على الأقل ، ما فى جرائد الغد أو ما يأتى به البريد من أخبار .

ولكنه يمكن أن تثار فينا قوى أخرى أكثر عمقا من مجرد تلك القوى المحبة للاستطلاع؛ لأنه حين تختفى دوافع الحب والإعجاب ، تبقى دوافع البغض والكره قائمة لتتجاوب مع ما يناسبها من الحالات . وإن الشر الذى نشعر به من أعماق قلوبنا ونخافه هو ذلك الشر الذى يمكننا الآن أن نساعد على استئصاله ؛ لأن مصادره الآن ، حيث إنها ليست « جوهراً » ولا « نفساً » ، فانية محدودة ، ويمكننا أن نستأصلها واحدة بعد الأخرى . وإنه لمن العجيب حقا أن الشدائد والمحن لا تزيل الحب فى الحياة ولا تضعفه ؛ بل بالعكس ، يظهر أنها تزيد من الحب فيها والتمسك بها . إن دواء الملانخوليا هو الامتلاء والاكتظاظ . والحاجة والجهاد هما اللذان يثيراننا ويلهماننا ؛ وساعة الانتصار هى التى توجد وقت الفراغ . ولذا لم تظهر عبارات التشاؤم ، التى ذكرت فى الإنجيل ، من اليهود وهم فى التيه ، ولكنها ظهرت فى أيام عظمة سليمان وعزه . ولما سقطت ألمانيا تحت حوافر جيوش نابليون أظهرت أعلى نوع تفاؤلى ومثالى رآه العـــالم من الأدب ؛ ولم يتغلب التشاؤم فى فرنسا على هذا الوضع الذى نشاهده إلا بعد أن وزعت الملايين هناك بعد ثورة سنة ١٨٧١ . وليس تاريخ شعبنا إلا بياناً طويلا عن السرور الذى ينشأ عن الجهاد ضد الخطايا والأمراض النفسية . انظر إلى حالة رجال Waldeneses [1] ، الذين كنت أقر عنهم قريبا ، لتتبين مقدار ما يمكن أن يتحمله الأقوياء من الرجال . إذ صدر أمر من البابا إنوسنت الثامن عام ١٤٨٥ بقتلهم جميعاً ، وغفر الخطايا الكنسية لكل من يحمل السلاح ضدهم وبرأه من آثامه وذنوبه ،

(١) هى جماعة دينية خرجت على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية زعيمها Petrus Waldus . ولذا نسبت إليه. وظهرت فى ليون حوالى ١١٧٩ بعد الميلاد . ومذهبها فى جوهره كالمذهب البروتستانتى. ولقد قاست من أجله كثيراً من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل، أشار المؤلف إلى جزء ضئيل منه.

وأعفاه من كل يمين وعهد ، وأباح له تملك كل ما جمع من مال ولو عن طريق غير مشروع، ووعد أخيراً بأن يغفر خطايا كل من قتل زنديقاً منهم .

يقول أحد كتاب Vaudois [1]، «ليس هناك من مدينة في Piedmont لم يقتل فيها أحد إخواننا . فأحرق أحدهم حيا في Susa ، وآخر ، وكان له ثمانون عاما في Sarcena ؛ وشنق ثالث في Coldi Meano ؛ وقطعت أحشاء آخر وأخرجت أمعاؤه في Turin ؛ وكذا فعل مع آخر ، إلا أنه وضع في جوفه بعد ذلك قط زيادة في التنكيل به ؛ ودفن واحد وهو على قيد الحياة في Rocca Patia ؛ وقضى على آخر بنفس القضاء في San Giovonni ؛ وغلت يدا رجل ورجلاه إلى عنقه وترك على ثلوج Sarcena ليموت بردا وجوعا ؛ وطعن آخر بالسيف ، وملئت جروحه بالزئبق ثم ترك ليموت من الألم في Fenile ؛ وقطع لسان آخر في Babbo ، لأنه وجد يسبح بحمد الله ؛ ومات آخر بالاحتراق ، فقد أدخل الكبريت بالقوة في لحمه ، وفي أنفه وفي فمه ، ووضع تحت أظافره وغطى به سائر جسده ثم أشعلت النار فيه ؛ وملئ فم آخر بالبارود ، ثم أشعلت فيه النار فانفجر وتمزق الرجل إرباً ؛ ... وشق جسم امرأة من الرجلين إلى قرب الصدر ثم تركت على قارعة الطريق بين Lucerna و Eyral ؛ ووضعت حربة في أسفل أخرى ثم حملت عليهـــا من San Giovonni إلى La Torre »[2] .

---

(١) هم جماعة Waldenese المتحدث عنهم .

(٢) الأسماء المعذبة هي كما ذكرت في الأصل :

Jordan Terbano; Hippolite Rossiero; Michael Goneto; Vilermin Ambrosio; Hugo Chiambs; Peter Geymaroli; Maria Romano; Magdalena Fauno; Susanna Michelini; Bartolomeo Foche; Daniel Michelini; James Baridari; Daniel Rovelli; Sara Rostignol; Anna Charbonnier.

وكثير من هذا القبيل . وفى عام ١٦٣٠ أهلك الطاعون نصف جماعة Vaudois وكان من بينهم خمسة عشر راعياً من رعاة الكنيسة، وكان عددهم من قبل سبعة عشر راعيا. ولقد ملىء الفراغ الذى تركه هؤلاء الرعاة من Geneva و Dauphiny ، وكان لزاماً على البقية من تلك الجماعة التى لا تعرف اللغة الفرنسية أن تتعلمها لتتمكن من فهم الطقوس الدينية ومن تأديتها. ولقد نقص عددهم مراراً بسبب الاضطهادات المستمرة، ونزل من خمس وعشرين ألف نسمة إلى ما لا يزيد عن أربعة آلاف من الأشخاص . وفى عام ١٦٨٦ خيَّر Duke of Savoy الثلاثة آلاف الباقية منهم بين ترك دينهم وبين الهجرة من البلاد ، ولما رفضوا هذا وذاك ، كان عليهم أن يستعدوا لمواجهة الجيوش الفرنسية وجيوش Piedmonts فحاربوا حتى لم يبق من قوتهم المحاربة من غير قتل أو أسر إلا ثمانون رجلا ، ولما استسلموا أرسلوا جميعاً إلى سويسرا . ولكن عاد منهم ما يربو على الثمانمائة جندى عام ١٦٨٩ ، ليفتحوا وطنهم ثانية تحت إمرة رؤسائهم الروحانيين وبتشجيع وليم البرتقالى (William of Orange) . فحاربوا حتى وصلوا إلى Bobi ، وفقدوا حوالى نصفهم فى الستة شهور الأولى ، ولكنهم صمدوا لكل ما أرسل لهم من قوى ؛ حتى وهبهم فى النهاية Duke of Savoy شيئا من الحرية بعد أن نقض عهده مع ذلك الرجس من الدمار والخراب لويس (Louis) الرابع عشر؛ ومن ذلك الحين زاد عددهم وضاعفوا منه فى وديان جبال الألب الجرداء حتى يومنا هذا .

فهل تقارن آلامنا وأحزاننا بهذه ؟ أليس مجرد ذكر حروب مثل هذه أثيرت بعناد وإصرار ضد نفر قليل مثل هؤلاء كافياً أن يملأ قلوبنا حزماً وعزماً وتصميماً على أن نقف متكاتفين ضد مافينا من قوى على فعل الشر ، — ضد نظم رجال السياسة ، ورجال النهب وقطاع الطريق ، والبقية التى هى على هذه الشاكلة ؟ إن الحياة تستحق العيش فيها، على الرغم مما تأتى به من محن وإحن ، مادام ينتهى مثل هذا الصراع على النحو الذى

نبغى ، ويمكننا من أن نضع أرجلنا على أعناق الظالمين . فلك أن تتوجه ، إذن ، إلى مريد الانتحار فى عالمه المفروض أنه ملىء بالشرور والآثام ـ تتوجه إليه باسم الشر نفسه الذى جعل قلبه مريضاً ، وتسأله أن ينتظر حتى يرى نهاية دوره من الجهاد . وليس قبوله الاستمرار فى الحياة ، الذى تسأله أن يفعله فى هذه الحالات الخاصة ، ذلك النوع من الاستسلام الصوفى الذى ينصح به الزهاد من معتنقى الأديان المتواضعة: إنه ليس استسلاماً فى ذلة وخنوع وخضوع ، ولكنه ، بالعكس ، تسليم ناشىء عن شجاعة وعزة . ومادام أحد الشرور المتعلقة بك التى قدتبعثك على الانتحار لايزال قائماً لم يعالج ، فإن ذهنك سوف لايشغل بالشر الذهنى العام . فإن ما تتطلبه من نفسك من خضوع لحقيقة الشر العام ، واستسلامك الظاهرى إليه ، ليس له معنى فى هذه الحالة إلا اعتقاداً بأن الشر العام لايعنيك ولا يهمك حتى يزول كل مايتعلق بك من شرور خاصة وحتى يتقرر المصير فيها . والتحدى من هذا النوع ، المصاحب بإظهار للتفاصيل وإبراز لها ، هو تحدى لايقدر أن يفعله إلا هؤلاء الذين لم تضعف قوى غرائزهم العادية ؛ وهو الذى يزيل منك كل تفكير فى الانتحار ويجعلك مستعداً لأن تواجه الحياة ثانية بكثير من الرغبة والاهتمام. وإن عاطفة الشرف عاطفة خراقة نافذة. فعند ما ندرك ، مثلا ، كيف أن عدداً وفيراً من الحيوانات المسكينة التى لم تقترف ذنباً يقاسى ويذبح وتنتهى حياته ، لا لشىء سوى مساعدتنا على النمو ، وجعلنا ممتلئى الجسم سعداء ، وبذا نتمكن من الجلوس هنا والتحدث فى مثل مانتحدث به الآن من موضوعات ، فإنا نبدأ نرى علاقتنا مع العالم الخارجى فى ضوء آخر ، وفى شكل أكثر جدية وأهمية . وكما قال أحد الفلاسفة : « أليس قبول حياة سعيدة على هذا الأساس يتضمن شيئاً من الشرف؟ » ، أو لسنا مضطرين أحياناً أن نتحمل كثيراً من

الشدائد ، ونضحى بمصالحنا ، من أجل الآخرين الذين تتوقف عليهم حياتنا ؟ ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد إذا كان للمرء قلب عادى معتدل .

من ذلك يتبين أن غرائز حب الاستطلاع والجهاد والشرف قد تجعل الحياة تستحق ، على أسس طبيعية محضة ، أن تقضى وأن يبقى فيها ، من يوم لآخر ، كل هؤلاء الذين خلصوا أنفسهم من براثن الميتافيزيقية لينجوا بذلك من مرض السوداء، وهؤلاء الذين أصروا ، فى الوقت نفسه ، على ألا يعترفوا بأنهم مدينون للدين أو لمطالبه الإيجابية بشىء ما[1] . قد يقول بعض منكم ، إنها مرحلة قصيرة لم تبلغ الغاية ؛ ولكن لابد أن تعترفوا بأنها ، على الأقل ، مرحلة قويمة ؛ وليس لأحد أن ينتقص من هذه الغرائز ، لأنها خير مالنا من آلات طبيعية ، ولأن الدين نفسه لابد أن يتوجه إليها فى النهاية بمطالبه الخاصة .

— ٤ —

وحين أرجع الآن إلى مايمكن أن يقوله الدين فى هذه المسألة ، فإنى بذلك أدخل فى الجزء المهم من موضوع حديثى . دلت كلمة الدين فى تاريخ الفكر الإنسانى على كثير من المعانى ؛ ولكنى حين أستعملها الآن أقصد بها ماهو فوق الطبيعة ، مقرراً بذلك أن ما يدعى بنظام الطبيعة الذى يتضمن عالم التجربة ليس إلا جزءاً من مجموعة الكون ، وأن هنالك وراء هذا العالم المشاهد عالماً آخر غير مشاهد لانعرف الآن عنه شيئاً إيجابياً، ولكنا ندرك أنه ليس لحياتنا هذه من قيمة إلا فى علاقتها وارتباطها به . وليس للعقيدة الدينية عندى من معنى (مهما يكن شأن ماتضمنته من تفاصيل)

---

(١) يعنى به الدين الطبيعى بدليل السباق والسياق .

إلا الاعتقاد فى وجود نظام خفى غير مشاهد ، يمكن أن توجد فيه حلول لطلاسم ذلك النظام الطبيعى . ترى الأديان العليا أن هذه الدار ليست إلا مدخلاً وطريقاً لعالم آخر أكثر منها حقية وأدوم بقاء ، وأنها ليست إلا دار عبر ومحن ، أو خلاص وافتداء . وترى أنه من الشروط الأساسية للوصول إلى تلك الدار الآخرة أن يعمى الإنسان نفسه بقدر ما عن تلك الدار الفانية وألاَّ يكرس كل همه وجهوده عليها . وإن النظرية القائلة إن العالم المادى ، عالم الماء والهواء ، حيث تشرق الشمس ويغيب القمر ، هو العالم المطلق الذى أراده الرب تعالى، نظرية لا توجد إلا فى الأديان القديمة جداً ، مثل دين القدامى من اليهود . وهو ذلك الدين الطبيعى (البدائى ، على الرغم من أن كثيراً من الشعراء والعلماء ، الذين تتغلب عواطفهم على حدة ذهنهم ، يحاول أن يظهره فى نغمة مناسبة لبعض الآذان المعاصرة) الذى ، كما أخبرت سابقاً ، قاسى كثيراً ثم أخفق فى نظر جماعة من الناس ـ أعد نفسى واحداً منهم ـ لا يزالون فى ازدياد مطرد . إذ لا يقدر أن يتبين هؤلاء الأشخاص فى العالم المشاهد ، كما يراه العلم ، معنى واحداً منسجما ، أو قصداً . بل هو مجرد طقس ، كما سماه رايت Chauncy Right ، فاعل ومبطل من غير غرض أو قصد .

وإنى الآن آمل فى أن أجعلكم تشعرون معى، فيما تبقى لى من وقت قليل ، بأن لنا الحق فى اعتقاد أن العالم المادى ليس إلا عالماً ناقصاً ، وأن لنا أن نكمله بنظام آخر روحى خفى ، مادام افتراضه يحبب إلينا هذه الحياة ويجعلها تبدو مستحقة لأن يظل المرء منغمسا فيها . ولكن ذلك الافتراض أو تلك الثقة قد تبدو لبعض منكم عملاً صوفياً غير علمى ، لذلك لابد لى من أن أحاول أن أضعف تلك الناحية التى تظنون بها أن العلم لا يسمح لنا بمثل تلك الثقة .

هنالك بين الطبائع الإنسانية عقول مادية وطبيعية لا تقبل من الحقائق إلا ما كان

محسوساً . والمعشوق الأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى « بالعلم »؛ وحب كلمة « عالم » هو أحد الدلائل التى تعلم بها الشغوفين به ؛ وأقرب الطرق عندهم وأسهلها لقتل مالا يؤمنون به من آراء هو أن توصف بأنها آراء « غير علمية » ؛ ولكنه لابد من الاعتراف بأنه ليس هناك أدنى سبب لهذا . حقاً لقد قفز العلم فى الثلثمائة عام الأخيرة قفزات عظمى يفخر بها ، ومدّ من أفق معرفتنا للطبيعة مداً عظيما فى مجموعها وفى تفاصيلها ؛ ولقد أظهر رجال العلم ، كطبقة ، فضائل جمة يغبطون عليها. لذلك ليس عجباً أن ترى رجال العلم قد أُغرموا به وجنّوا فى حبه . ولقد سمعت عدة من المدرسين فى هذه الكلية يقولون إن العلم قد وجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقة ، ولم يترك للمستقبل إلا النظر فى التفاصيل . ولكن أدنى تدبر وتأمل فى الحالات الواقعية يبين ضلال مثل هذه الفكرة وبعدها عن الصواب . إذ أنها لاتصدر إلا عن شخص ضعفت عنده قوة الخيال العلمية ، ولا تكاد تتصور من آخر له اتصال ما بالعلوم . فانظر إلى ماظهر فى عصرنا من نظريات جديدة محضة ، وإلى المشاكل التى ظهرت اليوم ولم يفكر فيها من قبل ، ثم انظر إلى مجال العلم الضيق : إنه بدأ من أيام غاليلو (Galileo) ، من مدة لاتزيد على ثلثمائة سنة . وهى مدة كان يمكن أن ينقل إلينا فيها العلم أربعة من المفكرين فحسب ، آتياً أحدهم تلو الآخر ومخبراً له عن الاكتشافات العلمية التى حدثت فى عصره . ومن هذه الناحية، تتمكن جماعة أقل من جماعتنا هذه ، جماعة لايزيد عدد أفرادها على مائة وعشرين ، إذا كانت متعاقبة فى الزمن وصح لكل فرد منها أن يتحدث عن عصره ، أن تصلنا بالعصور المظلمة للنوع الإنسانى وبتلك الأيام التى لانجد مايحدثنا عنها من كتاب أو تمثال . فهل من المعقول ، إذن ، لعلم فطير مثل هذا ، ولمعرفة نمت فى وقت قصير كهذه ولم تنضج بعد،

أن يكون أكثر من ومضة من المعرفة الحقيقيـة للعالم حينما يفهم فهماً دقيقاً ويدرك إدراكا شاملاً؟ إن معرفتنا ليست إلا قطرة بجانب بحر ؛ ألا وان البحر هو جهلنا . ومهما يكن من يقين أومن عدمه حول كثير من الأشياء ، فإن هذا القدر ، على الأقل ، يقيني ـ وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منه ، ولـكننا لانعرف فى الوقت الحاضر شيئاً عما يتصف به من صفات إيجابية .

تعترف اللا أدرية الوضعية نظرياً بهـذا المبدأ ، ولـكنها ترفض أن تطبقه على الناحية العملية . إذتقول تلك النظرية ، ليس لنا من حق فى أن نتوهم ، أوأن نفترض أشياء فى ذلك الجزء الخفى من العالم ، لمجرد أن ذلك الوهم أو هذا الافتراض قد يبدو محققاً لأغراضنا العليا . فلا بد أن ننتظر دائماً قبل أن نعتقد حتى نجد البراهين الحسية المبررة للاعتقاد ، وإذا لم يكن لمثل هـــذه الأدلة من وجود ، فليس لنا أن نفترض فرضاً ما . ذلك طبعاً موقف سليم على وجه عام . فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفى ، وإذا كان لايجد إليـه من حاجة ماسة ، ولا يعنيه أن ينسجم أو لاينسجم معه ، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هو حالة الحياد وعدم الاعتقاد لا فى هذا ولا فى ذاك . ولـكن الحياد ، على الرغم من أنه صعب المراس من ناحيـة نفسية ، هو كذلك غير ممكن التحقيق فى هـذه الحالة ، حيث إن الأمر المخير فيـه أمر حيوى وعملى بالنسبة لنا . وذلك لأن الاعتقاد والشك ، كما يخبرنا علماء النفس ، أمران حيويان يستلزمان منا عملاً . فمثلاً ، طريقنا الوحيد للشك أو لرفض الاعتقاد فى وجود شىء ما هو أن نستمر فى حركاتنا وتصرفاتنا كأنه لا وجود له . فإذا رفضت أن أعتقد أن جو الغرفة أصبح بارداً ، فإنى أترك النوافذ مفتحة ، ولا أوقد فيها ناراً ، كما أفعل لو كنت أعتقد أن جوها لايزال دافئاً . وإذا شككت فى أنك من الأشخاص الذين لايوثق بهم ، فإنى أكتم عنك جميع أسرارى ، كما أفعل

لو علمت أنك لست محلا للثقة . وإذا ترددت فى أن منزلى يحتاج أن يؤمن عليه ، فإنى أدعه غير مؤمن عليه ، كما أفعل لو علمت يقينا أنه ليس هناك من حاجة للتأمين. كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهى ، فليس لذلك من مظهر إلا الامتناع عن التصرف على أنه إلهى، وليس لهذا من معنى، ثانيا ، إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة ، أو التصرف على نحو غير دينى . من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسه فعل فى بعض الأحيان ، ولا بد أن يعتبر كذلك ؛ وإذا لم يكن الفعل من أجل شىء فإنه لا بد أن يكون ، من ناحية عملية ، ضد ذلك الشىء ؛ وفى جميع هذه الحالات ، لا يمكن وجود حياد تام غير متردد فيه.

وبعد كل هذا ، أليس القول بوجوب الحياد ، فى حين أن ميولنا النفسية تؤدى بنا إلى الاعتقاد ، قولا فى غاية من الحماقة ؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة فى العالم الخفى مجردَ يقين خاطىء لا دليل عليه ؟ فلقد برهن التنبؤ المبنى على الاتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه فى كثير من الأمثلة الأخرى . أنظر إلى العلم نفسه ! فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعى بالضرورة انسجاما منطقيا ورياضيا فى هذا العالم ، فإنه كان يكون من العسير علينا أن نذهب لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلك العالم الطبيعى الفج وفجواته؛ وينذر أن يوضع قانون علمى، أو يتيقن بحقيقةٍ مافيه، من غير أن يكون كل ذلك مسبوقا ببحث، غالبا ما يكون شاقا ومضنيا ، ليرضى حاجة نفسية ويشبعها . ولكننا لا ندرى من أين أتت تلك الحاجات النفسية، إنا نجدها فينا فحسب ؛ وليس لعلم النفس البيولوجى من مجهود نحوها إلا أن يضعها فى دائرة واحدة مع «الاختلافات العرضية» ، موافقا فى ذلك دارون . ولكن للحاجة النفسية إلى الاعتقاد فى أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازاً لعالم آخر أكثر منه روحانية وأبدية من القوة والسلطان على نفوس

هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الاطراد فى قوانين السببية والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين . ولقد برهن مجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هـذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة فى الواقع ، فلماذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضا ؟ وإذا ما صح كل ذلك فى العالم المشاهد ، فلماذا لا يصح فى العالم الغائب ولا يكون دليلا على وجوده أيضا ؟ وباختصار ، من هو الذى يحق له أن يمنعنا من أن نثق فى ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها ؟ ليس للعلم ، كعلم ، أن يزعم هذه السلطة لنفسه ، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل ، وليس له شأن بغيره ؛ وأما قول اللاأدريين «ليس لك أن تعتقد من غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة» ، فليس إلا تعبيراً (لكل امرئ الحق فى أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية فى أدلة من نوع خاص .

ولكن ما الذى أقصده بالتصديق أو الثقة فى مطالبنا وميولنا الدينية ؟ أتحمل الكلمة معها تصريحا لنا فى أن نرسم ما نشاء من أوصاف تفصيلية لعالم الغيب ، وفى أن نحرم هؤلاء الذين يرون غير ذلك من حقوقهم الكنسية ؟ إنها لا تعنى شيئا من هذا القبيل ! فإن قوانا على الاعتقاد لم توجد فينا باعتبار الأصـــل ، لنوجد بها الأورثوذكسية والابتداع معاً ، ولكن لنعيش بها . وليس للوثوق فى مطالبنا الدينية من معنى إلا أنه يجب علينا أن نعيش على ضوئها ، وأن نتصرف كأن ما تقترحه من عالم الغيب حق لامراء فيه . وإنه لحقيقة واقعية أن الناس يقدرون على أن يحيوا وعلى أن يموتوا بمساعدة بعض العقائد الدينية من غير تحديد وتفصيل فى جزئياتها . وإن مجرد اليقين بأن ذلك النظام المشاهد ليس هو النظام المطلق النهائى ، بل مجازاً أو ظلا ، أو مرحلة واحدة ظاهرية من عالم آخر كثير المراحل تكون الكلمة العليا والأخيرة فيه للعالم الروحى ، ويتصف مع ذلك بالبقاء والدوام — ذلك اليقين وحده

كاف لأن يجعل الحياة تستحق الاستمرار فيها ، فى نظر أمثال هؤلاء الرجال ، على الرغم من كل افتراض مناقض يقترحه المستوى الطبيعى المادى لذلك العالم المشاهد . فإذا أزلت ذلك اليقين من نفوس هؤلاء ، وجدت أن كل ما فى الوجود من ضوء وإشعاع قد اختفى من نظرهم . وتأتى بعد ذلك غالبا تلك النظرة للحياة المتجهمة العابسة التى هى حالة الانتحار .

وهنا يأتى دور التطبيق بالنسبة لى ولكم . قد يبدو أكثر نوع من الحياة مرارة وضنكا لكل واحد منا هنا محتملا وموازيا لما فيه من متاعب إن لم يكن راجحاً عنها، إذا كنا متأكدين أن هذا التحمل وذلك الصبر آخذان فى سبيل الانتهاء تدريجياً ، ومؤديان إلى بعض الثمرات الطيبة فى عالم الغيب الروحى . ولكن إذا افترضنا أنا لا نقدر أن نتأكد من تلك الثمرة ، فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق ، وأن الثقة أو التصديق ليست إلا أحلاما وخديعة من أحلام البله المغفلين ، أو ليست إلا مكانا يلجأ إليه الكسالى من الناس ، أو أنها، بالعكس، لاتزال اتجاهاً حيويا قويا ، لكل منا أن يتجه إليه وينغمس فيه ؟ إننا طبعا أحرار فى أن نثق وفى أن نصدق مانشاء ، مادام غير محال فى نفسه، ومادمنا نجد من الأشباه والنظائر مايؤيده . والآن، كل مايشهد للمذهب المثالى من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادى ليس هو العالم المطلق ؛ وإن القول بأن حياتنا المادية كلها لا بد أن تكون مشربة بجو روحى ، ومختلطة بنوع من الوجود ليس لدينا الآن من القوى مانعرفه بها، تمكن البرهنة عليه، أيضا، بقياس التمثيل على حياة الأليف من حيواناتنا . فكلا بنا ، مثلا ، تسام فى حياتنا ، ولكنها ليست منها . إنها تشاهد فى كل لحظة جميع ما يظهر من حركاتنا وأفعالنا ، ولكنها لا يمكنها أن تدرك مغزاها . فلا تدرك مغزى حادثة ما ، حتى ولو كانت هى نفسها مسئولة عن الجزء المهم منها . فيعض كلبى غلاما آذاه ، فيطالب والده بتعويض . وقد يكون الكلب

بعد ذلك حاضراً فى كل مرحلة من مراحل التحقيق ويرى الغرامة الماليه تدفع ، ولكنه لايدرك شيئاً من مغزى كل هذه الحركات ، ولا يمكن أن يظن أن له يداً فيها ؛ ولا يمكنه ، ككلب ، أن يعرف ذلك. وإليك مثلاً آخر كنت أتأثر به تأثراً بالغاً عند ما كنت طالباً فى الطب : تصور حالة الكلب الموضوع على لوحة التشريح فى معامل التجارب ، إنه مربوط على تلك اللوحة يصرخ ويئن من عمل المشرح ، ويرى أنه فى عذاب وجحيم ، ولا يرى منفذاً من كل ما هو فيه ؛ ولكن هذه الحوادث التى تبدو له شيطانية قد أوجدها ، فى كثير من الأحيان ، القصد الإنسانى الذى لو علمه عقل الكلب وأدرك وجهة نظر الإنسان لاستسلم بشجاعة كما يستسلم الرجل الدينى . فإن الحقيقة الشافية وتخفيف الآلام المستقبلة عن كل من الإنسان والحيوان لابد أن يشتريا بالغالى من الثمن بكل من الإنسان والحيوان . وقد تكون تلك العملية عملية تخليص حقيق ، وقد يكون الكلب فى استلقائه على لوحة التشريح مؤدياً وظيفة أكثر أهمية وثمرة للنوع الإنسانى من الوظيفة التى يمكن أن تؤديها حياته الكلبية ؛ ولكن هذه الوظيفة هى الوظيفة التى لايقدر الكلب على أن يدرك كنهها من بين سائر وظائفه الأخرى .

دعنا الآن نرجع من كل هذا إلى حياة الإنسان . قد رأينا أن عالمنا لم يكن مدركا للكلب ، لأنا ، بالنسبة له ، نعيش فى عالمين . وأما فى الحياة الإنسانية ، فعلى الرغم من أننا لانرى إلا عالمنا وعالمه الذى هو عالمنا ، فقد يكون هناك عالم آخر محيط بهذين العالمين ، ولكنا لانراه كما أن عالمنا غير مرئى له ؛ وقد يكون الاعتقاد فى ذلك العالم الآخر أهم وظيفة يمكن أن تؤدى فى هذا العالم . ولكنا نسمع الآن أرباب المذهب الوضعى يقولون باستصغار واحتقار : « قد يكون ! وقد يكون ! ماهى الثمرة التى تجتنيها الحياة العلمية من تلك الاحتمالات ؟ » إننى أجيب بأن الحياة العلمية نفسها

ذات اتصال وثيق بالاحتمالات ، والحياة الإنسانية كذلك شديدة الصلة بها . وما دام للإنسان قيمة ما ، وما دام مُنشئاً ومبتكراً لشيء ما ، فإن وظائفه الحيوية كلها لابد أن يكون لها ارتباط وتعلق بالاحتمالات . فلا يمكن أن يتحقق انتصار ما ، أو يوجد فعل اعتقادى أو تنفذ حركة دالة على شجاعة وقوة ، إلا وهى مبنية على الاحتمالات ومتعلقة بها كل التعلق ؛ وليس هناك من خدمة تقدم ، ومن عمل كريم يبذل ، ومن بحث أو تجارب علمية ، ومن كتاب معترف به ، إلا وهو يحتمل الخطأ . وإننا ، حقا ، لا نعيش من ساعة لأخرى إلا ونحن مخاطرون بأنفسنا وموقفونها مواقف يمكن أن تزل فيها . وغالباً ما يكون اعتقادنا السابق فى غير المبرهن عليه من القضايا هو السبب الوحيد الذى يجعل تلك القضايا قضايا صادقة . فافترض ، مثلاً ، أنك كنت صاعدا جبلاً ، وأجهدت نفسك حتى وصلت إلى مركز لا يمكنك أن تنجو منه إلا بقفزة عنيفة . فكيف الخلاص ؟ اعتقد أن فى مقدورك أن تقفزها ، وستجد فى قدميك قوة فعلية على تنفيذها . ولكن إذا نزعت ثقتك من نفسك ، وفكرت فى الأوصاف « الجميلة » التى سمعت العلماء ينعتون بها الاحتمالات ، فإنك سوف تتردد طويلاً حتى تهن أعصابك وتضطرب ، وأخيراً ، وفى ساعة من ساعات اليأس تقذف بنفسك فتسقط فى الهوة . إن الحكمة والشجاعة فى مثل هذه الحالة (التى تتصل بطبقة كبرى) فى أن تؤمن بما يتناسب مع حاجتك ، إذ أن الاعتقاد هو الذى يقضيها . ولك طبعاً ألاَّ تعتقد ، وستكون مصيباً فى ذلك ، لأنك سوف تهلك ولا محالة . ولك أن تعتقد ، وستكون مصيباً أيضاً ، لأنك بذلك تنجى من نفسك . وباختصار إنك ستجعل أحد العالمين الممكنين حقاً وحقيقة واقعية بثقتك أو بعدم ثقتك ، وليس لكل واحد من العالمين فى تلك الحالة وقبل أن تقوم أنت بدورك إلا احتمال الوقوع .

والآن يظهر لى أن السؤال المتعلق بقيمة الحياة هو سؤال خاضع لحالات شبيهة منطقياً بهذه الحالات . فإن الأمر هنا لا يتوقف إلا عليك أنت أيها الشخص الحى. فإذا استسلمت للمتشائم من الآراء ، ثم توجت صرح الشر بالانتحار ، فقد رسمت صورة سوداء قاتمة . وإن التشاؤم ، الذى يعقبه فعل ليكمل منه لحق ، لا مراء فيه ، بالنسبة لك ومن وجهة نظر مارسمت من عالم . لأن عدم ثقتك فى الحياة قد أزال كل قيمة كان يمكن أن يعطيها استمرارك فى الوجود لها ؛ ولقد برهن عدم الثقة ، كأحد الأسباب الممكنة لذلك الوجود ، على أن له قوة جبارة لا يستهان بها . ولكن افترض من ناحية أخرى ، أنك لم تستسلم لتلك الآراء القاتمة حول الحياة ، بل تمسكت بالرأى القائل بأنها ليست العالم المطلق النهائى . وافترض، ثانيا ، أنك وجدت نفسك ينبوعاً طيباً كما يقول وردورث (Wordworth) « من الغيرة والحمية ، وكنت متصفا بفضيلة أنك تعيش بناء على مبدأ وعقيدة كما يعيش الجندى بالقوة والشجاعة ، وكما تحارب البحارة بقوة فى قلوبهم وشجاعة بحاراً مضطربة هائجة مائجة » . وافترض، أيضا ، أن شخصيتك القوية قد برهنت على أنك ند قوى لما قد يتكاثف عليك من شرور ومتاعب ، وأنك تجد فى هذا الجهاد سروراً عظيماً أكثر مما تجده فى الحالة السلبية من مجرد الثقة بالكل . أو لم تجعل الحياة بهذا كله ذات قيمة ترغب فيها ؟ ليت شعرى ما الذى يمكن أن تكون عليه الحياة ، مع ما أنت عليه من استعداد لأن تلعب بها وتجاهد فيها ، إذا لم تجلب لك إلا جواً هادئاً ، ولم تدع لك مجالاً تلعب فيه قواك العليا ؟ وينبغى أن يتذكر أن التشاؤم والتفاؤل تعريفان محددان للعالم ، وأن استجاباتنا لذلك العالم وأفعالنا فيه ، مهما كانت صغيرة حجماً ، ليست إلا أجزاء من ذلك الكل ، وأنها لذلك تساعد بالضرورة على تكوين التعريف وتحديده . وقد تكون هى العناصر الجوهرية فى تحديد التعريف . فقد يتغير توازن كتلة كبرى

بإضافة مايزن مقدار الشعرة إليها ؛ وينعكس معنى الجملة الطويلة بإضافة ثلاثة حروف إليها وهى لام وياء وسين . فيمكننا أن نقول، إذن ، هذه الحياة تستحق العيش فيها ، لأننا نحن الذين نكيفها ونشكلها ، من وجهة النظر الخلقية ؛ وقد حزمنا الرأى وصممنا العزم على أن نجعلها ، من تلك الناحية ، وبقدر المستطاع ، ناجحة .

قد افترضت ، عند ما كنت أتحدث عن العقائد التى تشهد لنفسها ، أن عقيدتنا فى عالم الغيب هى التى تلهمنا وتبعث فينا هذا الصبر وتلكم المحاولات التى تجعل عالم المشاهدة عالماً صالحاً لأن يعيش فيه الرجل الخلق. فعقيدتنا فى أن هذا النظام المشاهد خير وحسن (ليس للخيرية والحسن هنا من معنى إلا الصلاحية والمناسبة لحياة ناجحة خلقيا ودينيا) تبرهن على صحة نفسها من حيث إنها معتمدة على اعتقادنا فى عالم الغيب . ولكن هل يمكن أن يبرهن اعتقادنا فى العالم الخفى على نفسه ؟ من يدرى ؟

مرة أخرى إنها حالة ممكنة ؛ ومرة أخرى إن الإمكانات والإحتمالات هى جوهر الحالة . ولست أدرى لماذا لا يكون وجود عالم الغيب متوقفا نفسه توقفا جزئيا على الاستجابة الفردية التى قد يستجيبها الواحد منا للنداءات الدينية . وباختصار ، لماذا لا يقال إن الإله نفسه قد يجد سروراً وقوة حيوية فى استقامتنا وإخلاصنا . ولست أدرى قيمة للصعاب والجهاد والمشقات فى هذه الحياة ، إذا دلت على ما هو أقل من ذلك . فإذا لم تكن هذه الحياة جهاداً حقا ، وإذا لم تكن ثمرة الانتصار فيها ربحاً خالداً للكون ، فإنها لا تكون خيراً من رواية تمثل على مسرح خاص ينسحب منه من شاء أى وقت شاء. ولكنها تبدو لنا كأنها جهاد حق ، وكأن هناك شيئا فى العالم متوحشاً ، نريد ، بكل مالنا من مثل عليا وعقائد وإخلاص، أن نخضعه ونجعله

أليفا ؛ ولكن لا بد لنا أولا أن نجعل قلوبنا أليفة وأن نطهرها من الإلحاد والخوف، لأن طبيعتنا قد تعودت على مثل هذا العالم الذى نصفه متوحش ونصفه الآخر أليف ونقى طاهر ، وانسجمت معه . وإن أكثر الأشياء عمقا فى طبيعتنا هو تلك النقطة الرطبة اللينة من القلب ، التى نعيش فيها وحدنا مع ما لنا من رغبات ونفور ، ومع ما لنا من عقائد ومخاوف . وكما أن المياه التى تتكون منها منابع الجداول تنبع من أحشاء الأرض شيئا فشيئا عن طريق ما فيها من شقوق وفجوات ، كذلك من تلك الأغوار البعيدة فى الإنسان والأعماق الخفية تتكون منابع كل أفعالنا الظاهرية وأحكامنا الخارجية . وتلك هى الأداة الفعالة التى تصلنا بطبائع الأشياء ؛ وليس يبدو لأى من القضايا الذهنية ومن المجادلات العلمية ـ مثل تلك الموانع والمعارضات التى يذكرها الوضعيون المتطرفون ضد عقائدنا ـ إذا ما قورنت بتلك الحركات الفعلية والواقعية للنفس ، قيمة فى الواقع ، وإنما هى ثرثرة لسانية . لأن الإحتمالات ، لا الواقعيات ، هى هنا تلك الحقائق التى يجب أن نتعامل معها وننظر فيها ؛ وهنا يقول وليم سولتر (William Salter) أحد أعضاء الجمعية الأخلاقية فى فيلادلفيا : « كما أن ماهية الشجاعة هى أن تخاطر بحياتك على احتمال ، فكذلك ماهية الاعتقاد هى أن تؤمن بوجود الاحتمالات » .

وكلمتى الأخيرة لكم هى هذه : لا تخشوا الحياة ولا تخافوها . بل اعتقدوا أنها تستحق العيش فيها ، وسوف يساعد هذا الاعتقاد على إيجاد تلك الحقيقة . وإن الدليل «العلمى» ، على أنكم على حق قد لا يتضح لكم تماما قبل أن تقوم الساعة (أو قبل وجود مرحلة أخرى من الوجود يعبر عنها بذلك التعبير) . ولكن المجاهدين المؤمنين فى وقتنا هذا ، أو الموجودات الأخرى التى سوف تتحدث باسمهم هناك، قد ينظرون إلى

ضعاف القلوب الذين رفضوا أن يؤمنوا ويجاهدوا مثلهم ، ويرددون لهم تلك الكلمات التى وجهها هنرى الرابع ، بعد انتصاره الباهر فى إحدى المعارك ، إلى كريلون (Crillon) البطىء المتأخر عن المعركة، وهى : « لاحظّ لك معنا أيها الشجاع كريلون ! فقد حاربنا وحدنا فى أركويز Arques ، ولم تكن أنت هناك معنا » .

انتهى طبعه فى رجب ١٣٦٥ هـ
يونيه ١٩٤٦ م

(استدراك)

فى السطر السادس عشر من صفحة ٤٧ ، اقرأ : ولقد اكتسب شهرته

وفى السطر الأول من صفحة ٩١ ، اقرأ : الظاهرة العنود